توجهات المستشرقين لتأجيج الصراع الحضاري والثقافي

م. د. منى حامد النّعيميّ
المديريّة العامّة لتربية بغداد/الرصافة الثانية
.muna.al.niaimi345@gmail. com

الملخص

سلّط البحث الأضواء على (توجهات المستشرقين لتأجيج الصراع الحضاري والثقافي). فقد كانت هذه التوجهات سلبية في أكثرها، وإيجابية نادرة يحيطها السؤال.

وكانت التوجهات الاستشراقية للتأجيج والسيطرة على الصراع الحضاري والثقافي الدائم بين الشرق والغرب، وبين العرب وغيرهم، وبين المسلمين وغيرهم.

فقد وقف البحث عند دوافع الاستشراق، ووسائله، ومنافذه التي يتسلل منها لتحقيق أهدافه. ولمواجهة الاستشراق عَمَدتُ إلى وضع رؤى مستقبلية، أُعدّها خططًا في مواجهة جادة، غير متناسين إنصاف المستشرقين الجادين الذين أملت عليهم أخلاقهم العمل بمهنية منصفة للطرف الآخر.

الكلمات المفتاحية

توجهات، المستشرقون، الصراع، الحضاري، الثقافي.

Abstract

The research sheds light on (Orientalists' tendencies to fuel civilized and cultural conflict). These trends were mostly negative, and a rare positive question surrounded.

The orientalist tendencies were to fuel and control the permanent civilized and cultural conflict between East and West, between Arabs and others, and between Muslims and others.

The research stopped at the motives of Orientalism, its means, and the outlets through which it infiltrates to achieve its goals. To confront Orientalism, I set forth future visions, which I prepared as plans for a serious confrontation, not forgetting the fairness of the serious Orientalists whose morals dictated them to work professionally and fairly for the other party.

Key words: Orientations, orientalists, conflict, civilization, cultural

المقدّمة

الحمد لله الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان مالم يعلم، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه الغرّ الميامين ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أمّا بعد:

لايزال الغرب والدول الباحثة عن التسلّط والاستحواذ على مقدرات الشعوب في الجوانب كافة تدرس وتبحث عن نقاط القوة والثبات في العالم الشرقي عامة، والعربي والإسلامي خاصة، فكان الاستشراق أحد الأساليب.

ولمّا كان الاستشراق عملية فكرية معرفية، صار حتمًا إعداد فكر يبحث فيه، فالفكر يواجَه بالفكر. والاستشراق بدأ ولن ينتهي فصار واقع حال، إذ يُعدّ الجناح العلمي والثقافي والفكري للاستعمار؛ ولأنّه أضرّ بالشرق والعرب والمسلمين أكثر ممّا نفعهم، فحريّ بالباحثين مواجهته في دوافعه ووسائله ومنافذه التي يتسلل منها لتحقيق أهدافه.

ومن واجب الباحثين أن يقدِّموا رؤى في مواجهة خطر الاستشراق الذي تمكّن من تمزيق الشعوب والدول بآلية الفكر والعقل والثقافة التي أثبتت قدرة وجدارة على فعل مالم تفعله ترسانة الحروب العسكرية، بفضل المفكرين المستشرقين في (أوروبا والغرب، ومَن تماشى معهم من الشرقيين).

ومن أجل وضع رؤى مستقبلية لتحدي ومواجهة أهداف الاستشراق عَمَدتُ إلى ما يوضّح هذه الرؤى التي نعدّها خططًا لخارطة تواجه الاستشراق مواجهة جادة إن لم توقفه؛ ففيها تحجيم وتقييد مدّهِ. غير متناسين في ذلك إنصاف بعض المستشرقين الموضوعيين الذين كان دأبهم في البحث العلمي المهني.

وسلّط البحث الأضواء على (توجهات المستشرقين لتأجيج الصراع الحضاري والثقافي). فقد كانت هذه التوجهات سلبية في أكثرها، وإيجابية نادرة يحيطها السؤال.

ولم يكن القصد من المستشرقين هم الغرب فقط، ولكن هذا المصطلح أصداؤه واضحة المعالم بسبب قِدَمِه، متقصدين أنّ هذه التوجهات المدروسة عِبرَ قرون من الزمن كانت لتفعيل والسيطرة على الصراع الحضاري والثقافي الدائم بين الشرق والغرب، وبين العرب وغيرهم، وبين المسلمين وغيرهم.

أمّا المنهج المتّبع في هذا البحث، فهو المنهج الاستقرائي، وذلك باستقراء وتتبع أقوال الباحثين والمفكرين والمستشرقين في موضوع الاستشراق.

المطلب الأوّل/دوافع الاستشراق

إنّ رحلة الاستشراق التاريخية منذ ظهوره حتى الآن لم تكن في طريق واحد ولا ذات أبعاد واحدة، فقد تعددت اتجاهاتها وتنوعت دوافعها وفقًا لمتطلبات كلّ دولة، ومقتضيات كلّ عصر وزمن، وكانت نتيجة التعددية تلك الاختلافات البيّنة في النتاج الاستشراقي الضخم (إدريس، ٢٠٠٣: ٢٠).

وتعدّ دوافع الاستشراق من المتغيرات التي ترتبط بظروف المستشرق المختلفة، والمتتبع للدراسات السابقة يستطيع إجمال الدوافع التي ميزت السيرة الاستشراقية على النحو الآتي:

أولًا: الدافع الديني: يتفق جميع الباحثين على أنّ بداية الاستشراق كانت من الكنيسة التي كان لها أثرٌ كبيرٌ في توجيه الأنظار والاهتمام بعامل التفوق الشرقي على الأوربيين، فمن طريق تقويم الفشل الذريع للحروب الصليبية ثمّ التحول بالكنيسة إلى الغزو الفكري الذي كان المستشرقون روّاده والكنيسة مؤسسته.

فكان روّاد حركة الاستشراق رهبانًا قساوسة ولم تكن أعمالهم العلمية بمعزل عن دورهم الكنسي، من هؤلاء (سلفستر الثاني)، و(يوحنا الأشقوبي)، وغيرهم كثير، زيادة على أنّ المؤسسات الثقافية الاستشراقية في معظمها مؤسسات كنسية، مثل معهد تعليم اللغات الشرقية بفرنسا، والسوربون، ومراكز اللغات الشرقية في روما.

ويبرز بوضوح سيطرة الدافع الديني على بحوث الاستشراق ودراساته، وأنّ معظم نتاج المستشرقين تركز حول أساسيات العقيدة الإسلامية، فالقرآن والرسول(صلى الله عليه وسلم) والسنّة والفقه الإسلامي موضوعات أخذت كثيرًا من وقت واهتمام الدوائر الاستشراقية، معتمدين الشك والافتراضات الخاطئة والنتائج المسبقة. (الزيادي، ٢٠١١: ٣٤- ٣٨) (السباعي، ٢٠٠٣: ٢١- ٢٢)

وممّا يؤكّد صحة هذا الاستنتاج أقوال زعماء المستشرقين منهم برنارد لويس:" لاتزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين، ومستقرة في الغالب وراء الحواشي المرصوصة في الأبحاث العلمية". (زقزوق، د.ت: ٧٦) .

ويقول نورمال دانييل (جحا، د.ت:٥٨):" على الرغم من المحاولات الجديدة المخلصة التي بذلها بعض الباحثين في العصور الحديثة للتحرر من المواقف التقليدية للكتّاب النصارى من الإسلام فإنّهم لم يتمكنوا من التجرّد منها تجرّدًا تامًا". (زقزوق، د.ت: ٧٦)

وزيادة على ذلك عامل الارتباط الواضح والمستمر بين الهيئات الاستشراقية والإرساليات التنصيرية التي استفادت من الاستشراق الذي يُعدّ الهيئة الاستشارية للتنصير. (الزيادي، ٢٠١١: ٣٧) (السباعي، ٢٠٠٣: ٢١)

ثانيًا: الدافع الاستعماري: عندما اجتاح الفكر الاستعماري أوروبا انطلاقًا من بعض النظريات العرقية التي قادها رينان وأضرابه، وتطلّعت الدول الأوربية إلى استعمار العالم الشرقي، احتاج هؤلاء إلى كثير من المعلومات التي تساعدهم في تحقيق تطلّعاتهم الاستعمارية وقد وجدوا في المستشرقين قوالب جاهزة ذات علاقة قوية بالشرق، وعلى دراية كافية بكثير من المعلومات التي تمهد لحركة الاستعمار، ومن هنا تمّ التلاحم بين الاستشراق والاستعمار ودخل المستشرقون في مرحلة جديدة هي المرحلة الاستعمارية (الزيادي، ٢٠١١: ٣٨- ٤٠) (السباعي، ٢٠٠٣: ٢١) .

فكان التعاون والارتباط بين الاستشراق والاستعمار بصور وأشكال منها (الزيادي، ٢٠١١: ٤٠- ٤٤) (السباعي، ٢٠٠٣: ٢٢- ٢٣) :

١. أسهم تنقل المستشرقين وترحالهم في بلدان العالم الشرقي، وما نتج عن هذه الرحلات من مؤلفات في إعطاء صورة واضحة لصنّاع القرار الغربي في اختيار الأمكنة الملائمة لتوجيه جيوشهم، وفي توزيع رقعة العالم الشرقي بينهم.
٢. قيام بعض المستشرقين بخدمات مباشرة للحركة الاستعمارية، فقد كُلِّف كثير منهم بمهام محدودة منها قيام بعض المستشرقين بدراسات تحت رعاية حركة الهند الشرقية التي أثبتت أثرها الاستعماري في شبه القارة الهندية.
٣. عمل بعض المستشرقين ضباطًا في الجيوش الأوربية، فهؤلاء جمعوا إلى جانب عملهم الأكاديمي عملًا استعماريًا يؤكِّد وجود الدافع الاستعماري وراء حركة الاستشراق.
٤. وجود الدراسات الاستشراقية التي ركزت على ما يسمّى بالفِرَق الإسلامية التي شغلت حيزًا كبيرًا من نشاط المستشرقين، فضلًا عن دراسات أخرى استهدفت التركيز على إثارة النعرات الطائفية والحزبية والمذهبية ومحاولة تجذيرها، فكانت هذه الدراسات عاملًا مهمًّا ساعد الاستعمار الغربي في استعمال سياسة (فرق تسد) لإحكام قبضته على مناطق العالم الشرقي.

ثالثًا: الدافع التجاري (الاقتصادي): لا يخفى أنّ للمستشرقين أدوارًا واضحةً في مساعدة العالم الغربي على رسم سياسة اقتصادية تستهدف استنزاف ثروات الشعوب الشرقية، واستمرارية اعتمادها على ما تنتجه المصانع الغربية، فقد عملت الدراسات الاستشراقية على كشف العقلية الشرقية من جميع جوانبها(الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والنفسية) واطلّعت على كلّ ما يحتاجه الشرقي ويفضّله، فكان ذلك سببًا في إغراق الأسواق الشرقية بالمنتجات الغربية المصنعة خصيصًا لها، فتسبب في الاعتماد الدائم على المستورد الغربي من دون التفكير في استغلال الموارد في التصنيع المحلي، فتستمر السيطرة الاقتصادية الغربية على شعوب العالم الشرقي، ويستمر استنزاف خيراته وفق دراسات متجددة يقوم بها مستشرقون في مختلف دول

العالم الغربي . (الزيادي، ٢٠١١: ٤٥) (السباعي، ٢٠٠٣: ٢٣) (إدريس،٢٠٠٣: ٢٧-٢٩)

رابعًا: الدافع السياسي: يتمثل الدافع السياسي للاستشراق في أولئك المستشرقين العاملين في مختلف السفارات والهيئات الدبلوماسية الغربية ذات العلاقة بالعالم الشرقي، وهؤلاء يتكلمون اللغات الشرقية ويعرفون لهجاتها ولهم دراية بالتركيبة السكانية للمنطقة، فهم يمارسون دورًا سياسيًا يتمثل في ربط سياسات العالم الغربي بدول الشرق، فضلًا عن كونهم مستشرقين، ومثال على هؤلاء المستشرقين (جون بادو) الذي عمل سفيرًا لأميركا في القاهرة، و(برتشرد) الإنجليزي الذي عمل قنصلًا في تونس، والفرنسي (بونيون) الذي عمل قنصلًا في حلب. (الزيادي، ٢٠١١: ٤٥- ٤٦) (السباعي، ٢٠٠٣، ٢٣- ٢٤)

خامسًا: الدافع اللاهوتي: يتأتى هذا الدافع من ارتباط اللغة العربية باللغة الآرامية، وهي لغة النصرانية الأولى، وبها جاء الإنجيل الأصلي (عمايرة، ١٩٩٢: ٢٨) ... وثمّة علاقة أخرى تربط العربية بالعبرية، وهي لغة العهد القديم (التوراة)، وهذه اللغات الثلاث تنتمي إلى نسب واحد، هي اللغة السامية الأم، وكون اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي عمّرت هذا العمر المديد ممّا جعل الغربيين يتطلعون إلى دراستها؛ بغية الربط بينها وبين لغة الإنجيل الأصلي المندثر. (عمايرة، ١٩٩٢: ٢٨- ٣١)

سادسًا: دوافع متفرقة

استطاع الباحثون والدارسون للحركة الاستشراقية الوصول إلى دوافع أخرى تأتي في مرتبة تالية لما سبقها هي:

أولا: دوافع نفسية: تتمثل في رغبة الإنسان الفطرية في المعرفة والاطلاع ومعرفة حياة الآخرين وأفكارهم، تلك الرغبة التي تكلف الإنسان كثيرًا من وقته وجهده وإمكاناته. كما يدخل في إطار تلك الدوافع النفسية، رغبة البعض في تحقيق مكسب خاص به، كربح مادي، أو سمعة، وشهرة، أو حبًّا في السيطرة، أو نشر أفكار بعينها، وهو ما قد يتداخل هنا مع دوافع أيديولوجية، وما الاستشراق الروسي ببعيد عن ذلك. (إدريس، ٢٠٠٣: ٣٣)

ثانيًا: دافع تاريخي: إنّ الصراع التقليدي بين الشرق والغرب إنّما نتج عن دافع تاريخي، إذ كان الصراع متواصل بين الجانبين، يقوى ويفتر، وكانت وسائله في الماضي عسكرية، وبعد أن ظهر الإسلام وأخذ مكانته في ذلك الكون بما أحدثه من ثورة عظيمة في الفكر، انضمت إلى وسائل الصراع الحربية وسائل أخرى فكرية .

زيادة على ذلك، بعض الضربات الشرقية الإسلامية الموجهة للغرب، التي تعد علامات بارزة في تاريخ الإنسانية، كفتح الأندلس، ودحر الصليبيين، وصدّ المغول واستيلاء الأتراك

على القسطنطينية، ودخول الإسلام إلى كثير من دول أوروبا، وتحكم المسلمين في الطرق التجارية، وما يمتلكه الشرق من مقدرات، كلّ هذه الحقائق التاريخية، كان لها أثرٌ كدوافع تاريخية حتّمت على المستشرقين توجيه الاهتمام إلينا، حلًا لهذه المعضلة التاريخية. (إدريس، ٢٠٠٣: ٣٤)

إنّ الواقع الميداني يرى عدم " فصل هذه الدوافع بعضها عن الآخر في حيِّز الواقع والحقيقة، فكثيرًا ما تتواشج هذه الدوافع وتتداخل، لتُشَكِّل لُحْمَة واحدة تفسر اندفاع عجلة الاستشراق في اتجاه موّحد، يستهدف الشرق بشكل أو بآخر". (عمايرة، ١٩٩٢: ٢١)

المطلب الثاني/ وسائل الاستشراق

لابدّ من وسائل وسُبل لتحقيق الأهداف الاستشراقية، وهذا بعد أن أيقن المستشرقون أنّ التنظيم العملي المتنوع للاستشراق حتمية لتحقيق المنجزات. فبعدما كان مقتصرًا على نشاطات محددة أبرزها إرساليات التبشير والرحلات الاستكشافية إلى العالم الإسلامي. فقد تبلور التنظيم الاستشراقي في عقد مؤتمر المستشرقين الأول في باريس عام ١٨٧٣م، ثمّ توالى عقد المؤتمرات التي تلقى فيها البحوث عن الشرق وأديانه وحضارته. (سعيد، ٢٠١٠: ٢٦٥)

أي: أنّ الاستشراق بدا منفتحًا ومتفاعلاً مع المؤسسات الأكاديمية التي عملت على تطويره، إذ انبثقت كراسي الأُستاذية للدراسات الشرقية وازداد عددها في الجامعات الأوربية، إلى جانب إنشاء دائرة المعارف الإسلامية التي اشترك في وضعها عدد كبير من المستشرقين، وتأسيس الجمعيات الاستشراقية، من مثل (الجمعية الملكية الآسيوية، والجمعية الألمانية للدراسات الأجنبية، و...)، زيادة على بناء مكتبات ضخمة تتبنى جمع الوثائق والمخطوطات والكتب الإسلامية، أشهرها (مكتبة باريس، ومكتبة برلين)، وصدور دوريات الاستشراق مثل مجلة (مناجم الشرق)، و(كمية المعرفة)، وإلقاء المحاضرات في الجامعات والجمعيات العلمية. (سعيد، ٢٠٠٣: ٤٣٠- ٤٣١) (بركات، ٢٠٠٣: ٥٣- ٥٤)

وفي الحديث عن الوسائل الاستشراقية هناك أمران يتحتم علينا بيانهما: (القيسي، ٢٠١٢: ٣٣)

الأول: أنّ الثقافة الغربية سخّرت جميع أدواتها المعرفية، واستثمار ماكنة نشرها العملاقة، وصناعة الأفلام المنتجة لمخيالها الثقافي.

الآخر: يصنف الوسائل إلى (وسائل خارج النصّ) هي التي تحرص على إخراج النصّ سليمًا، والمحافظة عليه وإدامته، كما في جميع المخطوطات وعمل المكتبات، وفيه يهيمن العامل المهاري التقني على بقية العوامل. وإلى (وسائل داخل النصّ) وهي التي تقوم على إعمال الفكر والتأمل والتدبر في دراسة النصوص، لاسيّما النصّ القرآني، زيادة على تأليف الكتب.

ومن الوسائل التي سلكها المستشرقون لنشر أبحاثهم وبثّ آرائهم ما يأتي:

أوّلًا: العمل الجامعي: يشمل التدريس وإنشاء كراسي الدراسات الشرقية، والمعاهد المتخصصة في مجال اللغات الشرقية، والإشراف على برامج الدراسات العليا، وتنظيم المحاضرات واللقاءات الفكرية المتنوعة، وتأليف الكتب المنهجية، والمستهدف من هذا النشاط الفكري هو عقول الشباب ممّن ذهبوا إلى التعلم في المؤسسات الغربية، وهم أكثر الناس تعرضًا لحملات الفكر الاستشراقي المضاد للإسلام.

وشغلت المحاضرة الجامعية حيزًا مهمًّا في العمل الاستشراقي، إذ توفّر للمستشرق فرصة كبيرة في طَرِق أفكار متعددة، فضلاً عن الانتقال بين الموضوعات المختلفة التي قد لا توافرها فرصة التأليف المنهجي.

ونظرًا لأهمية التدريس الجامعي في نشر الفكر الاستشراقي فقد عمل المستشرقون على الدخول في الجامعات العربية خاصة والشرقية عامّة، وشَهِدَت كثير من هذه الجامعات عصرًا كان المستشرقون روّاد التدريس فيها، منهم (هوداس)، و(جويدي) وغيرهما من المستشرقين الذين عملوا في الجامعات الشرقية أساتذة وقياديين في مؤسسات علمية، وكان لهم أثر كبير في خلق أجواء ثقافية جديدة وخلق جيل جديد تشبَّع بتيار الثقافة الغربي. (الزيادي، ٢٠١١: ٤٨- ٥٨) (السباعي، ٢٠٠٣: ٣٣)

ثانيًا: تأليف الكتب والموسوعات: توجهت أقلام المستشرقين للكتابة حول كلّ شيء يتعلّق بالشرق لغةً وكتابةً وأدبًا وعقائدًا وفنونًا وتراثًا وغير ذلك، ولم تكن مؤلفاتهم ذات طابع واحد، فقد كان كثير منها يمتلئ بالأغلاط المنهجية والعلمية ويتميز بالأحكام المسبقة، لاسيّما ما كان منها متعلقًا بالديانات أو بالدين الإسلامي بصورة خاصة، وكان بعضها يخلو من مثل تلك السلبيات ويتسم بالروح العلمية المنهجية، إلا أنّ اعتماده على مرجعية غربية كاملة نظرًا لضعف اللغة أدى إلى الوقوع في بعض المزالق، أمّا القليل النادر من هذه المؤلفات هو الذي لا يدخل في نطاق أبحاث الدافع العلمي.

أمّا موضوع المعجمات فقد قام المستشرقون فيه بجهد متميز لا ينكره إلّا مَن جهله، فما قام به المستشرقون في هذا الجانب قد خدم الباحثين كثيرًا في مجالات مختلفة وسدّ فراغًا هائلًا كانت تعاني منه المكتبة العربية. ومن أمثلة ذلك: تاريخ الأدب العربي لـ(كارل بروكلمان)، وتاريخ الأدب العربي لـ(هامر برجشتال) الذي ترجم فيه لـ(٩٩١٥) أديبًا وشاعرًا. (السباعي، ٢٠١١: ٤٨- ٥٨) (السباعي، ٢٠٠٣: ٣٥- ٣٦)

ثالثًا: العمل الصحفي: عمل المستشرقون على إرتياد العمل الصحفي بإنشاء مجلات متعددة متخصصة وعامة قارب عددها (٣٠٠) مجلة بمختلف اللغات، منها: (المجلة الآسيوية

الفرنسية، ومجلة الجمعية الآسيوية الملكية الإنجليزية، ومجلة العالم الإسلامي الأمريكي)، وقد صدرت أول مجلة استشراقية متخصصة في أوروبا على يد (هامر برجشتال) في فينا باسم (كنوز الشرق) في الفترة ما بين ١٨٠٩– ١٨١٨م. (الزيادي، ٢٠١١: ٥٣– ٥٤) (السباعي، ٢٠٠٣: ٣٤– ٣٥)

رابعًا: المؤتمرات الاستشراقية: إنّ فكرة المؤتمرات الاستشراقية التي تجمع ما تفرق من جهود المستشرقين الموجودين في أماكن متعددة من أوروبا، إذ كانت هذه المؤتمرات فرصة اللّقاء والتعارف وتوحيد الجهود وتنظيمها، ونظمت في مستويين (عامة، ومحلية).

وقد كانت هذه المؤتمرات وسيلة لدفع العمل الاستشراقي الذي خفّت حدته بعد رحيل القدامى الذي كان الواحد منهم يتكفل بعمل ما يقوم به مؤتمر أمثال (يوهان فوك)، و(بروكلمان) وغيرهما ممّن تفانوا في خدمة العمل الاستشراقي، وعندما ظهر جيل آخر من المستشرقين لا يمتلك صبر الأوائل على البحث والاطلاع، وليس له غزارة نتاجهم فإنّ أفضل وسيلة لدفع العمل الاستشراقي هي المؤتمرات التي يجمع نتاجها في مجلدات تدفع إلى القرّاء في مختلف أنحاء العالم. ولا يخفى أنّ عقد المؤتمرات؛ لإحكام خططهم في الحقيقة، ولبحوث عامة في الظاهر . (الزيادي، ٢٠١١: ٥٤– ٥٦) (السباعي، ٢٠٠٣: ٣٥)

خامسًا: المجاميع العلمية: هي من الوسائل التي مكّنت المستشرقين من الاتصال المباشر بالعلماء والمفكرين العرب والمسلمين وأسهمت في تسريب الفكر الاستشراقي إلى هذه المؤسسات.

وتبقى الأسئلة مطروحة على المسؤولين عن هذه المؤسسات الذين سمحوا للمستشرقين بالدخول واكتساب شرف العضوية . (الزيادي، ٢٠١١: ٥٦– ٥٨)

سادسًا: إرساليات التبشير إلى العالم الإسلامي لتزاول أعمالًا إنسانية في الظاهر في المستشفيات، والجمعيات، والمدارس، والملاجئ، ودور الضيافة كجمعيات الشباب المسيحية وأشباهها. (السباعي، ٢٠٠٣: ٣٤)

المطلب الثالث/ منافذ الاستشراق

إنّ منافذ دخول الفكر الاستشراقي إلى عالمنا الشرقي والعربي والإسلامي لا يمكن أن تكون واضحة؛ لاتصافها بالتخفي، ولا يمكن أن تكون منافذ علنية؛ حتى لا يتنبه الطرف المقصود من العملية الاستشراقية.

وتضافرت جهود الغربيين جميعًا على تنفيذ برنامج الغزو الفكري للعالم الشرقي عمومًا والإسلامي خاصة من أجل السيطرة على هذا العالم ليظل تابعًا للعالم الغربي في مختلف المجالات.

وتبنَّى المستشرقون من طريق مؤسساتهم تنفيذ هذا البرنامج فعملوا على تطبيع العقل الشرقي وتطويعه كلّما أتيحت لهم الفرصة، وشملت مشروعاتهم كلّ الفئات، ودخلت جميع المجالات. (الزيادي، ٢٠١١: ٥٨- ٦٢) ومن أهم المنافذ التي نفذ منها فكرهم، ما كشفت عنه الدراسات السابقة عبرِ القنوات الآتية: (سعيد، ١٩٨٩: ٤٣- ٤٤) (شاتليه، ١٣٥٠هـ: ٧٧، و٢٣٢ وما بعدهما) (السباعي، ٢٠٠٣، ٣٤) (الزيادي، ٢٠١١: ٥٨- ٦٢)

أوّلًا: الإرساليات الشرقية: توجه الشرقيون تحت شعورهم بالحاجة إلى العلم والمعرفة إلى دول العالم الغربي طلابًا موفدين إلى الجامعات الغربية في مختلف المجالات وكان هؤلاء مختلفي الأعمال قليلي الثقافة، لذا كانوا وسيلة جيدة تأثرت بالفكر الاستشراقي سلبًا أو إيجابًا، وكان بعضهم عندما عادوا إلى بلادهم خير مروّج لهذا الفكر ومدافع عنه، ومعظم التيارات الفكرية الوافدة والنظريات الغربية إنّما ذاعت في مجتمعنا من طريق الطلبة العائدين من أوروبا وأمريكا.

وتشمل الإرساليات العاملين في الحقل الدبلوماسي في الدول الغربية، والمهاجرين إلى الغرب طلبًا للعمل والإتّجار، فهؤلاء كانوا أيضًا وسيلة نقل جيدة عَبَرَ من طريقها الغزو الفكري إلى عالمنا.

تتضمن هذه الإرساليات لجوؤنا إلى الخبرات الغربية في مختلف المجالات مثل الخبراء العسكريين، وخبراء النفط، ومستشاري التعليم، وفنيي الصناعات وغيرهم، وتشمل كلّ ما قدم إلى عالمنا من شركات أجنبية أيًّا كان نشاطها الذي تزاوله، فهذه الشركات مؤسسات غربية تمارس أدوارًا مختلفة، فإلى جانب عملها المهني تؤدي دورًا استعماريًا وسياسيًا وفكريًا، وتشمل الإرساليات الغربية أيضًا البعثات الدبلوماسية الغربية في دول العالم الشرقي وما يتبعها من موظفين وعمّال، وحَمِلَت أنواع الإرساليات معها كثيرًا ممّا أثّرت فيه من مجريات الأحداث في حياتنا.

فكان تأثيرها عبرِ خيوط مختلفة ليلتقي في النهاية مُشَكِّلاً تغييرًا جوهريًا في سلوكياتنا ومجريات تفكيرنا.

ثانيًا: المؤسسات التنصيرية: غزت الإرساليات التنصيرية كلّ العالم الشرقي وأقامت فيه مؤسسات طبية وتعليمية متعددة فكانت مراكز علنية تستغل حاجة الإنسان لإحداث التغيير العقائدي الذي يعدّ وسيلة لإحداث بقية التغييرات في شخصية الإنسان الشرقي.

وأدت الإرساليات التنصيرية أدوارًا رئيسة في التسلل إلى المؤسسة التعليمية في شكل مستشارين تربويين أو مخططي مناهج أو موجهين أو غير ذلك، فضلًا عن قيامها بدور كبير في التأثير في سياسات كثير من الدول لاسيّما الفقيرة منها، واستطاعت الدخول في المجالات

الإعلامية بما أنشأته من إذاعات وصحف، ممّا أسهم بدور فاعل في إنجاح برامج الغزو الفكري للعالم الشرقي.

المطلب الرابع/ أهداف الاستشراق

إنّ اهتمام الغرب بالشرق، هو من الموضوعات التي استغرقت القرون ومانزال إلى يومنا هذا وتبقى إلى أجلٍ غير مسمّى.

ممّا يجعل الوقوف عند هذا الموضوع لزامًا على الباحثين، هو الأسئلة المطروحة على طاولة البحث وهي:

ما الهدف من توجه آلاف المستشرقين الباحثين في مختلف نواحي الحضارة العربية، والإسلامية، والشرقية، مع استعمال عشرات اللغات في الدراسات، زيادة على تخصيص جزءًا مهمًا من ميزانيات الدول؛ لدعم مثل هذه الدراسات، وفتح المئات من المؤسسات والجامعات أبوابها لرعاية هذا الحقل الدراسي.

فهل من المعقول أن يكون هذا من أجل دراسة لغة غريبة عنهم؟ إذن فلماذا لم تبذل كلّ هذا الجهد وتوافره لتهتم هذه الدول بحضارتها الأوربية بدلًا من اهتمام ها بالحضارة العربية؟

هذه الاسئلة وغيرها تفرض على الباحثين الإجابة عن كلّ سؤال، لتتضح الصورة وتذهب الشكوك باليقين، فمن غير المعقول أنّك جهة مدروسة في كلّ تفاصيل حياتها من قِبَل جهة تخطط وتستعد وتبذل وتنفذ وليس لك من الأمر شيئًا؟

ولم يكن الباحثون بمنأى عن تحديد جزءًا من هذه الأهداف بحسب تحليلهم ونظرتهم للأمور، ولكن يبقى هناك أهداف أسيرة المستشرق لا يمكن أن يبوح بها؛ إذ لكلّ مهنة أسرار مكنونة هي سرّ نجاحها.

ولا يخفى أنّ الأهداف المتوخاة من الاستشراق كثيرة ومتداخلة، وقد يتصور البعض أنّها أهداف مستقلة عن بعضها؛ كونها تنسق تحت عنوانات مستقلة، ولكن في حقيقتها أهداف تتجاذب بعضها لتصب في هدف مركزي يحتويها يتمثل بسيطرة (الأنا) على (الآخر) واحتوائه. (الزيادي، ٢٠١١: ٣٢) (السباعي، ٢٠٠٣: ٢٥) (إدريس، ٢٠٠٣: ٢١– ٣٧)

ومع تتبع الدراسات السابقة (الزيادي، ٢٠١١: ٣٢) (السباعي، ٢٠٠٣: ٢٥) (إدريس، ٢٠٠٣: ٢١– ٣٧) نستطيع أن نوضح أغلب الأهداف الاستشراقية التي استرعت نباهة الباحثين ومستوى تحليلهم لها، على النحو الآتي :

أوّلاً: الهدف العلمي البنّاء: هو الهدف الايجابي الوحيد، الذي يتبناه عدد قليل من المستشرقين الباحثين عن الحقائق العلمية في تراث الشرق. فهؤلاء المستشرقون " يهوون الاستشراق ثمّ يتخذونه كأي المهن الحرة" (العقيقي، ١٩٦٤: ٣/ ٦٠٥)

وممّا لاشك فيه أنّهم وجدوا في اللغة العربية لغة ثقافة وحضارة، شجعتهم على الاستمرار في بذل مجهودهم العلمي. ويراد بهذا الهدف البحث والتمحيص، وقد تمثل بدراسة التراث العربي الإسلامي جمعًا ودراسةً وتحقيقًا ونشرًا وترجمة بقصد الإفادة العلمية من علوم ومعارف العرب والمسلمين.

وهذه الفئة أقلّ خطرًا في أهدافها؛ إذ يرجعون إلى الحقّ عندما يتبيَّن لهم، ومنهم من يعيش بقلبه وفكره في جو البيئة التي يدرسها، فيأتي بنتائج تنطبق مع الصدق والواقع، وقد يلقون عنتًا من أصحاب الأهداف الأخرى، باتهامهم بالانحراف عن المنهج العلمي، أو الانسياق وراء العاطفة، أو محاولة مجاملة المسلمين والتقرب منهم. (الزيادي، ٢٠١١: ٣٣) (السباعي، ٢٠٠٣: ٣١- ٣٢)

على " أنّ هؤلاء لا يوجدون إلا حين يكون لهم من الموارد المالية الخاصة ما يمكنهم من الانصراف إلى الاستشراق بأمانة وإخلاص؛ لأنّ أبحاثهم المجردة عن الهوى لا تلقى رواجًا لا عند رجال الدين، ولا عند رجال السياسة، ولا عند عامة الباحثين، ومن ثمّ فهي لا تدر عليهم ربحًا ولا مالاً؛ ولهذا ندر وجود هذه الفئة في أوساط المستشرقين". (السباعي، ٢٠٠٣: ٢١)

ثانيًا: الهدف الهدمي: يتمثل هذا بعدّة جوانب (الزيادي، ٢٠١١: ٣٣- ٣٤):

الأول: وبه يراد هدم أواصر الترابط بين مجتمع هذه الحضارة وبين عقيدته؛ وذلك من أجل ألا تتجدد هذه الحضارة التي أُريد لها الاندثار، ليتسع المجال لحضارة الغرب المادية، وتحقيقا لهذا تتابعت الدراسات غير العلمية التي قدّمت التراث الإسلامي بشكل مشوّه اعتمد الحذف والتغيير وسوء الاستنتاج، وتفسير الوقائع على غير حقيقتها، ولم تتوانى عن اعتماد الكذب والتزوير أحيانًا.

الثاني: تمثّل في مساعدة الدول الاستعمارية على تدمير العالم الإسلامي سواء أكان ذلك بالتمهيد لحركة الاستعمار العالمي أو تجذيرها وتوطينها، وتعترف الدوائر الغربية بأثر المستشرقين الإيجابي على المساعدة في احتلال العالم الإسلامي ، أو حتى دول العالم الثالث عمومًا.

الثالث: ما قام به المستشرقون من خدمات كبيرة أسهمت في تنشيط العمل التنصيري أو ما يسمّى بالتبشير والرفع من مستوى أدائه، فالاستشراق كان ولايزال الهيئة الاستشارية لحركة التنصير، منه تستمد معارفها وعلومها، وبه تستعين على تقويم أعمالها وتوجيه برامجها وخططها.

ثالثًا: الهدف العلمي المشبوه، يهدف إلى: (السباعي، ٢٠٠٣: ٢٥- ٣٠) (إدريس، ٢٠٠٣: ٢٢- ٢٣)

١. التشكيك بصحة رسالة النبي(ﷺ) ومصدرها الإلهي، ولمّا كان جمهورهم كلّهم ما بين يهود ومسيحيين يعترفون بأنبياء التوراة، وهم كانوا أقلّ شأنًا من محمد(ﷺ) في التاريخ والتأثير والمبادئ التي نادى بها، كان إنكارهم لنبوة محمد(صلى الله عليه وسلم) تعنتًا مبعثه التعصب الديني الذي يملأ نفوس أكثرهم رهبان وقِسس ومبشرين.

ويتبع ذلك إنكارهم أن يكون القرآن كتابًا منزلًا عليه من عند الله(عزّ وجلّ) وعندما يفحمهم ما ورد فيه من حقائق تاريخية عن الأمم الماضية، يزعمون أنّه استمد هذه المعلومات من أُناس كانوا يخبرونه بها، وعندما يفحمهم عمّا جاء به القرآن الكريم من حقائق علمية لم تُعرَف وتُكشف إلّا في هذا العصر، يُرجعون ذلك إلى ذكائه(صلى الله عليه وسلم).

٢. إنكارهم أن يكون الإسلام دينًا من عند الله تعالى، وإنّما هو ملفق –عندهم– من الديانتين اليهودية والمسيحية ولا يوجد عندهم سند يؤيده البحث العلمي، وإنّما هي إدعاءات استندت على بعض نقاط الالتقاء بين الإسلام والدينين السابقين.

٣. التشكيك في صحة الحديث النبوي الشريف الذي اعتمده علماؤنا المحققون، متذرعين بما دخل على الحديث النبوي من وضع ودس، متجاهلين الجهود التي بذلها علماؤنا لتنقيح الحديث الصحيح من غيره، مستندين إلى قواعد بالغة الدقة في التثبيت والتحري. والذي ساقهم إلى ركوب متن الشطط في دعواهم هذه، ما وجدوه من ثروة فكرية وتشريعية في الحديث النبوي، فادعوا أنّ هذا لا يعقل أن يصدر كلّه من محمد الأميّ بل هو عمل المسلمين أثناء القرون الثلاثة الأولى، والذي بعث هذه التخبطات والأوهام هو عقدتهم النفسية في عدم تصديقهم بنبوة الرسول(ﷺ).

٤. التشكيك بقيمة الفقه الإسلامي الذاتية، فقد زعموا أنّه مستمد من الفقه الروماني (الغربي) وقد بيَّن علماؤنا الباحثون بتهافت هذه الدعوة، وفيما قرره مؤتمر القانون المقارن المنعقد بلاهاي من أنّ الفقه الإسلامي فقه مستقل بذاته.

٥. التشكيك في قدرة اللغة العربية على مسايرة التطور العلمي؛ لاستجداء مصطلحاتهم التي تذكرنا بفضلهم وسلطانهم الأدبي علينا، وتشكيكهم في غنى الأدب العربي وإظهاره مجدبًا؛ لنتجه إلى أدبهم، وذلك هو الاستعمار الأدبي الموازي للاستعمار العسكري الذي يمارسونه.

٦. هل يمكن أن يكون وراء نشر مخطوطات عربية وإسلامية، وتحقيق دواوين شعر الآباء والأجداد من هدف سوى حب العلم والشغف به (إدريس، ٢٠٠٣: ٣١- ٣٣) ؟!

والإجابة الصريحة على مثل هذه التساؤلات تُستخلص من وقائع الأعمال الاستشراقية وما تقدّمه لنا من جوانب فكرية مختلفة. إنّ انفاق هذه الجيوش الاستشراقية للوقت والمال لم يكن في حقيقته نابعًا من حب خالص للعلم، ولا رغبة منهم في المحافظة على تراثنا والانتفاع به في تطوير واقعنا؛ فهذا أمر مثالي للغاية.

وهذه الدراسات الاستشراقية مجرد وسائل معاونة لفهم نفسية الشعوب العربية والإسلامية حتى يستطيع الفكر الاستشراقي العام أن –يخطط– على أُسس وأساليب علمية، لموقفه تجاه هذه الشعوب.

ويكمن الهدف في معرفة جوانب القوة لمواجهتها، والوقوف على جوانب الضعف لتعميقها، لتستمر السيطرة الغربية على هذه الشعوب.

وانصبّ اهتمام الاستشراق على مجالات النشر والتحقيق بالجوانب السلبية في تراثنا أكثر من اهتمامه بالإيجابية منها، زيادة على أنّ منهج التحقيق لم يتصف بالعلمية الخالصة، فهناك أخطاء في الفهم، وتحريف للنصوص، وتعليقات تعكس مدى التعصب لدى المستشرقين، وتفضح النوايا والدوافع من وراء هذه الأعمال . حتى مجال وضع الفهارس لم يأتِ إلّا ليهيء الوسائل المطلوبة لجمع المادة العلمية التي يعالجها المستشرقون.

أمّا تمجيد المستشرقين للأدب الجاهلي وتحقيق نصوصه إنّما هي محاولة لتضخيم الذات العربية القومية، للتغني بالماضي والإعراض عن الحاضر(السباعي، ٢٠٠٣: ٢٨– ٣٠) (إدريس، ٢٠٠٣: ٢٣).

رابعًا: الأهداف الدينية: نتيجة التفوق العسكري والحضاري للمسلمين العرب في القرون الوسطى، فقد تحفزت أوروبا لمعرفة ما في الشرق من دين وعلوم كان ومازالت تشكّل تهديدًا للغرب؛ فعمدت الحملات التبشيرية التي قادها بعض المستشرقين بدراسة اللغة العربية، لمعرفة ما جاء في القرآن الكريم وترجمته، التي لم تكن أمينة على مضمون القرآن وجمالياته، ويبتغون النيل من مكانته وأهميته، وزعزعة النفوس عنه، بذريعة أنّ القرآن نسخة مشوّهة من الأنجيل. (فوزي، ١٩٩٨: ٣٢– ٣٣) (الصغير، د.ت: ١٣– ١٥)

وهذا يعني أنّ الغاية من هذا الهدف إيقاف المدّ الإسلامي إلى أوروبا، والعمل على تنصير المسلمين تمهيدًا لاحتواء العالم الإسلامي دينيًا وسياسيًا. (القيسي، ٢٠١٢: ٣٤)

وتتمحور الأهداف الدينية فيما يأتي (السباعي، ٢٠٠٣: ٣٠– ٣١) :

١. تشكيك المسلمين بنبيهم وقرآنهم وشريعتهم وفقههم.

٢. تشكيك المسلمين بقيمة تراثهم الحضاري، إذ يدّعون أنّ الحضارة الإسلامية منقولة عن حضارة الرومان، ولم يكن العرب والمسلمون إلّا نَقَلَة لفلسفة تلك الحضارة وآثارها، ولم يكن لهم إبداع فكري ولا ابتكار حضاري.

٣. إضعاف ثقة المسلمين بتراثهم، وبثّ روح الشك في كلّ ما بين أيديهم من قيّم وعقيدة ومُثُل عليا، ليتمكن الاستعمار من إحكام قبضته عليهم، ونشر ثقافته الحضارية فيما بينهم، فيكونوا عبيدًا لها، وإضعاف روح المقاومة في نفوسهم.

٤. إضعاف روح التآخي بين المسلمين من طريق إحياء القوميات، وإثارة الخلافات والنعرات بين الأفراد والشعوب، وهذا فعلهم في البلاد العربية؛ لمنع لمّ شملهم وتوحيد كلمتهم، وتصيِّد الحوادث الفردية في التاريخ ليصنعوا منها تاريخًا جديدًا يدعو إلى ما يريدون من منع الوحدة بين البلاد العربية.

ومّما يؤكِّد أنّ الهدف الديني يعدّ من أبرز وأهم أهداف نشأة الاستشراق، وقد تفهَّمه الباحثون وأقروه في كتاباتهم لتاريخ نشأة الاستشراق، إذ ربطوا بين هذه النشأة وبين الدافع المسيحي.

يقول(رودي بارت):" كان الهدف من هذه الجهود الاستشراقية في ذلك العصر، وفي القرون التالية هو التبشير، وهو اقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام واجتذابهم إلى الدين المسيحي". (بارت، ٢٠١١: ١٤– ١٥)

ويقول (مكسيم رودنسون):" كان المسلمون خطرًا على الغرب قبل أن يصبحوا مشكلة، كما كانوا في الوقت نفسه عامل اهتزاز شديد في بيان الوحدة الروحية للغرب، وأنموذجًا حضاريًا يمتاز بتفوقه، وبحركته الإبداعية المتسارعة، وقدرته الهائلة على الانفتاح والاستيعاب إذ أنّه – وفي مواجهة تقدّم هذا الأنموذج– عبَّر مثقفو الغرب عن شعور عام بالاندهاش أمام الإسلام، وبدا ذلك لهم وكأنّه خطرٌ على المسيحية". (الشرقاوي، د.ت: ١٢)

وقد أدى فشل الصليبيين في السيطرة على العالم الإسلامي، إلى أن يبحث الأوربيون عن بديل يحقق لهم أهدافهم من دون مواجهات عسكرية، فكانت من أهم إجراءات الكنيسة الأوربية في هذا المضمار أن عَمِلَت على تشويه صورة الإسلام، وأشار إلى ذلك (مكسيم رودنسون) بقوله (إدريس، ٢٠٠٣: ٢٤):" إنّ هذه المشاعر نحو الإسلام قد أدّت إلى نتيجتين هامتين: **أولهما:** السعي نحو وحدة أيديولوجية أوربية متكاملة في مواجهة فكر الإسلام وحضارته، **وآخرها:** أنّ الكنيسة الأوربية قد عَمِلَت من أجل تثبيت الإيمان المسيحي، على تشويه المنتجات الحضارية للإسلام، وما يصل منها إلى مسامع الغربيين". (مدكور، ١٩٨٨: نقلًا عن الشرقاوي ص١٣)

وبعد الحروب الصليبية جاءت حركة الإصلاح الديني، وشعر الأوربيون النصارى بضرورة إعادة النظر في شروح كتبهم المقدسة؛ رغبة في إعادة فهمها على ضوء أسس الإصلاح، وكانت نتيجة ذلك أن تطورت الدراسات العبرية، ثمّ الدراسات العربية والإسلامية، ثمّ اتسع نطاقها زيادة على استمرارية الرغبة الأوربية الدفينة في التبشير بدينهم بين المسلمين.

وفي مرحلة لاحقة برزت قوة الدافع الديني المهيمن على النشاط الاستشراقي الأوربي فكان قرار إنشاء كرسي اللغة العربية في جامعة كامبرج في بريطانيا عام ١٦٣٦م قد نصّ صراحة على الهدف الديني، وإن شاركته أهداف أخرى.

إذ جاء في خطاب الجامعة المذكورة الخاص بإنشاء هذا الكرسي ما يأتي: (إدريس، ٢٠٠٣: ٢٥)

"... ونحن ندرك أنّنا لا نهدف من هذا العمل إلى الاقتراب من الأدب الجيد بتعريض جانب كبير من المعرفة للنور، بدلاً من احتباسه في نطاق هذه اللغة التي نسعى لتعلمها، ولكنّنا نهدف أيضًا إلى تقديم خدمة نافعة إلى الملك والدولة عن طريق تجارتنا مع الأقطار الشرقية، وإلى تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة والدعوة إلى الديانة المسيحية بين هؤلاء الذين يعيشون الآن في الظلمات" (زقزوق، د.ت: ٣١)

ومثلما رأى نصارى أوروبا في الإسلام خطرًا على عقيدتهم راحوا يدرسونه لمقاومته وإبادته، رأى شيوعيو روسيا في الإسلام الرؤية المسيحية نفسها.

ويؤكِّد (برنارد لويس) (العقيقي، ١٩٦٤: ٥٦١- ٥٦٢) التشابه الكبير بين الكتابات الاستشراقية التي ظهرت في روسيا خلال العشرينيات وبداية الثلاثينيات من القرن العشرين وبين الكتابات التي خرجت من أديرة أوروبا في القرون الوسطى. (لويس، ١٩٨٤: ١٩)

خامسًا: الهدف السياسي: يعدّ من أولويات أهداف الاستشراق لغرض السيطرة والاستحواذ على الشرق، وقد كتب (إدوارد سعيد) في هذا الشأن:" كنت قد زرت (آربري) أستاذ الدراسات العربية والإسلامية في جامعة كيمبردج قبل وفاته (١٩٦٩م) في صحبة أحد تلامذته وذكر لنا – دون فخر طبعًا بل بحسرة– كيف أنّ وزارة الخارجية البريطانية قد استخدمته واستفادت منه في شؤونها الخاصة". (شاهين، ٢٠٠٥: ٧٦)

ومّما يؤكِّد أهمية أثر المستشرقين أنّه يتدخل في مركز القرار السياسي في الدول الاستعمارية من طريق استشاراته وتقديراته، ويمثل الأنموذج المعاصر لهذا الصنف من المستشرقين (برنارد لويس) مستشار شؤون الإسلام والعراق في عهدي (جورج بوش) الأب والابن إذ أُخِذَ بنصيحته في غزو العراق ردًّا على هجمات الحادي عشر من أيلول عام

٢٠٠١م (طرابلسي http://www.al-akhbar.com/node/ ٧١٣١) (زاهد، ٢٠٠٨: ١٨٤).

وكان لبعض المستشرقين أثر في تفريق كلمة المسلمين، وكشف أوجه الاختلاف، وتعدد المذاهب، ودعم النعرات الطائفية، وإتهام الإسلام بأنّه دين فرقة وخصومة وتصدع، والتشكيك بصحة رسالة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ومصدرها الإلهي. (السباعي، ٢٠٠٣: ٢٥) (الصغير، د.ت: ١٨)

وكان للاستشراق أسلوبه المؤثر على الاستعمار الغربي عندما صوّر خطورة القرآن على أهدافهم التوسعية، فقد ذكر الوزير البريطاني (جلاستون) إبّان الهيمنة البريطانية (القيسي، ٢٠١٢: ٣٦) من أنّه: "مادام هذا القرآن موجودًا فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان". (الغزالي، ٢٠٠١: ٥٤)

سادسًا: الهدف الثقافي: يسعى الغرب دومًا إلى إيجاد بيئة ثقافية تناسب العصر الذي يعيشه الغرب، فالبحث في ثقافات وحضارات أخرى يرسخ القناعة بقدرة الغرب على إيجاد أجواء ثقافية متجددة مع تطور الحياة إيمانًا منهم بدينامية الحياة وأنّ صنع مصطلحات جديدة، وأفكار وأهداف ورموز ثقافية ترسخ عند المجتمع الغربي أنّه صانع ومجدد للحياة، وهو الوحيد القادر على بعث الحيوية في حياة الشعوب من طريق إشغالهم بمستجدات صنعها الغرب؛ كي تبقى فكرة (الأنا) مؤثرة و(الآخر) متأثر.

الخاتمة

من دراستنا لما سبق يعدّ الاستشراق ظاهرة تدرس مجتمعات (الآخر) من وجهة نظر (الأنا)، وهي وظيفة متعددة الأوصاف (سياسية، وفكرية، وثقافية، وحضارية، و...إلخ) أوجدها المهتمون بالإسلام، والشرق، والعرب، فانفقوا لها وخططوا واختاروا النخبة من العناصر الموثوقة في العمل التجسسي في أدق تفاصيل الحياة، فكانت النتيجة صمود الاستشراق وإن تغيرت مصطلحاته، وفي الخاتمة أُدون النتائج التي توصلت إليها الدراسة وأهم التوصيات.

أوّلاً: النتائج

١. تعدد المدارس الاستشراقية دليل على توزيع الأدوار بين المستشرقين، وهذا يؤكِّد وجود جهود عليا مُنَظِمة للعمل الاستشراقي.
٢. الاستشراق متغير ومتجدد بحسب تحولات الفكر الغربي وإصراره على التعايش العالمي، وهذا هو سرّ نجاح وقوة الخطط الاستشراقية.
٣. الاستشراق محاولة اصطفاء العنصر الغربي (الأنا) مع الإصرار على النظرة الدونية للإسلام والشرق والعرب (الآخر) .

٤. الإصرار الاستشراقي يؤكِّد أهمية وعظمة الحضارة الإسلامية والشرقية والعربية، إذ تعدّ مَثار اهتمام الغرب الذي يحاول طمس معالم هذه الحضارة وتاريخها، فهم يؤمنون بصناعة التاريخ المرسوم وفق أهواءهم وأيديولوجياتهم، حتى لو كان وهمًا.
٥. الاستشراق تَخَفِي وكواليس مظلمة ومصطلحات متغيرة، وعنوانات وهمية، ورغبة جامحة في السيطرة والاستحواذ على الآخر؛ لاعتبارات أيديولوجية مختلفة، وهذا ما يُثبت عدوانيته.
٦. المستشرقون أُناس ذوي كفاءة عالية في الاختصاص، متمرسون على العمل الأمني والتجسسي، ويتمتعون بالإخلاص والأمانة للجهات التي كلفتهم بالعمل.
٧. الاستشراق مصطلح غير مستقر؛ لتغيره المستمر إلى مصطلحات أخرى.
٨. الخسائر الفكرية والثقافية والحضارية أكبر من الخسائر العسكرية.
٩. هدف الاستشراق الأسمى هدف سياسي بالدرجة الأساس.
١٠. صمود الاستشراق أمام التحولات الثورية، والتبدلات الأيدولوجية، وهذا دليل على إصرار أرباب الاستشراق على البقاء، وقدرتهم على المواجهة والتغيير مع الحفاظ على الثوابت الاستشراقية.
١١. السيادة الغربية على العالم الآن، هي نتاج الاستشراق العلمي الجاد نحو العالم بأسرهِ، وهذا نتيجة إفادتها ممّن سبقها من المستشرقين، فضلاً عن خططها المدروسة بدقة تجاه دول العالم، لاسيّما منطقة الشرق الأوسط، والديانة الإسلامية، والقومية العربية.

ثانيًا: التوصيات

من سنن العقل المواجهة المتكافئة بين الأطراف للوصول إلى معادلة متوازنة؛ لتثبيت الذات، لذا توصي الدراسة في هذا الشأن بالآتي:

١. التوجه نحو الطرف الآخر الذي يشغل نفسه وعقله ويسخِّر أمواله وجهوده نحونا من طريق النقاش والحوار والكتابة في شأنه؛ ليكون واضحًا أمامنا والتغلب على الغموض الذي يلتف حوله.
٢. البحث في دقائق مصطلحاته التي يستعملها، والسؤال لماذا يتخفى وراء تعدديتها، مع أنّ الأهداف واحدة (الاستشراق، الدراسات الاستراتيجية، دراسات الشرق الأوسط، حوار الحضارات، حوار الأديان، الملحق السياسي، الملحق الثقافي، الدراسات الإقليمية أو الدراسات الاجتماعية، والإصلاح الديني، ...) .
٣. فتح مراكز بحثية متخصصة في دراسة الاستشراق ومصطلحاته البديلة؛ من أجل تتبع الأقلام والأفكار الاستشراقية.
٤. تعاون إسلامي وشرقي وعربي، كلٌّ يأخذ على عاتقه متابعة جانب من جوانب الاستشراق؛ ذلك أنّ الجميع تحت المجهر الاستشراقي.

٥. دعم الحكومات المادي والأمني والمعنوي للبحث والباحثين؛ ذلك أنّ تتبع مفاصل الاستشراق يحتاج إلى رصيد مادي وحماية أمنية وقاعدة علمية، فالاستشراق خطر يسبق الحرب العسكرية.

٦. تدريس مادة الاستشراق ومصطلحاته في (المعاهد، والجامعات)؛ ليتسنى رسم صورة في ذهن المجتمع لأخذ الحيطة وصنع باحثين قدر المسؤولية الملقاة على عاتقهم، فالمعرفة المبكرة خير من المعرفة المتأخرة.

٧. إنشاء مراكز استشراقية في كلّ البلدان التي يتواجد فيها المستشرقون.

٨. رفض وجود الجمعيات والمنظمات الخيرية والإغاثية من الغرب أو من الدول صاحبة العداء التاريخي للشرق والمسلمين والعرب؛ أخذًا بمبدأ (عدوك لن ينصرك) فهذه الجهات للتجسس والاختراق الأمني من دون شك.

٩. الإيمان بأنّ الغرب لن ينفع الشرق ومَن صدّقهم واهم، وليست عملية حفظ تراثنا المخطوط إلا لكونه ورقة ضغط علينا عند الحاجة إليها، أو هو عملية ذرّ الرماد في العيون.

١٠. تنشيط حركة ابتعاث الطلبة والباحثين في شؤون الغرب .

١١. تشجيع طلبة الدراسات العليا على اختيار موضوعات من شأنها دراسة دول الغرب وسياساته تجاه البلاد الإسلامية والشرقية والعربية، ثمّ الإفادة من هذه الدراسات سياسيًا واقتصاديًا ودينيًا.

١٢. خلق دوافع نفسية للمعرفة والاطلاع على حياة الشعوب الأخرى؛ لدراسة أفكارهم ونواياهم.

١٣. نتيجة التهاون الديني الذي أصاب المجتمع الإسلامي، تعلّق المسلم بالعادات والتقاليد والخرافات وجعلها بديلاً من تعاليم الدين الإسلامي، فصار تائهًا يتخبط بين العادات والعبادات وابتعد عن معرفة تفاصيل دينه، حتى غرق في الأوهام فصار عنصرًا سهل الوصول إليه وزعزعة إيمانه.

١٤. البحث عن منافذ الدخول إلى الفكر الاستشراقي، وأسهل طريق هو من المنافذ التي يدخلون إلينا بها، زيادة على إيجاد منافذ قد تكون غائبة عن أذهانهم.

١٥. محاولة الاستغناء تدريجيًا عن الشركات الأجنبية أيًّا كان نشاطها، فهذه المؤسسات مهنية الظاهر وسياسية استعمارية في الباطن.

١٦. السيطرة بالكامل على المؤسسات الإعلامية؛ ذلك أنّ الإعلام يمثل تمهيدًا للاختراق الميداني بسبب تعدد الوسائل الإعلامية للوصول إلى أصغر وأبعد نقطة تواجد في العالم،

فمن طريق الإعلام نستطيع أن نستشير كلّ العالم عندما يعرض وجهات نظره في موضوع ما، ثمّ يمكن أن تغذي أفكار الآخرين بما تريده لخدمتك.

١٧. لابدّ من وجود مؤسسة إسلامية عالمية، وأخرى شرقية، وعربية، لمواجهة الاستشراق؛ لأنّه جهد ونشاط عالمي متجه نحو هذا المثلث .

١٨. الاستقلال الفكري يعدّ بداية للاستقلال السياسي والاقتصادي والثقافي، لأنّ مَن لا ينتج أفكارًا لا يمكن أن ينتج احتياجاتهم الأساسية.

١٩. التواجد في كلّ المحافل الغربية، على أن تُوكل مهمة الحضور لأُناس من ذوي الكفاءة والخبرة في الاختصاص ليتمكن من قراءة وفهم ما يجري.

٢٠. نحتاج إلى مواجهة فكرية جادّة؛ لأنّ المستشرقين أثبتوا جديتهم وعلميتهم في مسيرة بناءهم الثقافي والفكري.

٢١. المحافظة على ديننا وهويتنا وعقيدتنا وتربية الأجيال على قيّم الإسلام والعروبة؛ لينشأ جيل محتفظ بالقيّم والمبادئ التي تجعله طرفًا لا يستهان به.

٢٢. تقويم دراسات المستشرقين في كلّ الميادين التي تطرقوا لها، لنقرأ أفكارهم ومدى صدقهم فيما كتبوا.

٢٣. البحث في موقف كبار المسؤولين عن المستشرقين الذين اعتنقوا الإسلام، أو أنصفوا الإسلام والشرق والعرب في استشراقهم.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: الكتب المطبوعة.

- أبو ديب، كمال، ٢٠١٠م، **الاستشراق: المعرفة- السلطة- الإنشاء**، د. ط، لبنان، مؤسسة الأبحاث العربية
- إدريس، أ.د محمد جلاء، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م، **الاستشراق الإسرائيلي في الدراسات العبرية المعاصرة**،ط١، القاهرة، مكتبة الآداب.
- بارت، رودي، ٢٠١١م، **الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية (المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه**، د. ط، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- بدوي، د. عبد الرحمن، ٢٠٠٣م،**موسوعة المستشرقين**، ط٤، بيروت، مؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- بركات، د. هاني محمد يونس، ٢٠٠٣م،**الاستشراق والتربية**: بركات، ط١، البتراء- الأردن، دار الفكر.

- جحا، د. ميشال، د.ت، **الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا**، د. ط، بيروت، معهد الإنماء العربي.
- زاهد، د. عبد الأمير كاظم،٢٠٠٨م، **قراءات في الفكر العربي المعاصر**، ط١،النجف- العراق، دار الصياد.
- زقزوق، د. محمود حمدي، د.ت **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري**، د.ط، القاهرة، دار المعارف.
- الزيادي، د. محمد فتح الله، ١٣٧٨هـ- ٢٠١١م، **الاستشراق أهدافه ووسائله دراسة تطبيقية حول منهج الغربيين في دراسة ابن خلدون**، ط٣ سوريا- دمشق، دار قتيبة للطباعة.
- السباعي، د. مصطفى،١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م، **الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم**، ط٤، دار الوراق، دار النيربين للطباعة.
- سعيد، د. عبد الستار فتح الله، ١٤١٠هـ- ١٩٨٩م،**الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام**، ط٥،المنصورة،دار الوفاء للطباعة.
- شاتليه،أ. ل، ١٣٥٠هـ، **الغارة على العالم الإسلامي، لخصها ونقلها إلى العربية:** مساعد اليافي، ومحب الدين الخطيب، ط١، القاهرة، منشورات العصر الحديث.
- شاهين، محمد، ٢٠٠٥م، **إدوارد سعيد راوية للأجيال**،ط١، عمّان- الأردن، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- الشرقاوي، د. محمد عبد الله، د.ت، **الاستشراق والغارة على الفكر الإسلامي**، د.ط، القاهرة، دار الهداية، دار الصابوني.
- الصغير، د. محمد حسين علي، د.ت، **المستشرقون والدراسات القرآنية الصغير**، ط١، لبنان، دار المؤرخ العربي، موسوعة الدراسات القرآنية(٥).
- العقيقي، نجيب، ١٩٦٤م، **المستشرقون**، ط٣، مصر، دار المعارف.
- عمايرة، د. إسماعيل أحمد، ٢٠٠٣م،**بحوث في الاستشراق واللغة**، ط٢، عمّان- الأردن، دار وائل للنشر.
- عمايرة، د. إسماعيل أحمد، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م،**المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية العربية عمايرة**، ط٢، عمّان- الأردن، دار حنين.
- فوزي، أ. د فاروق عمر، ١٩٩٨م، ط١، **الاستشراق والتاريخ الإسلامي (القرون الإسلامية الأولى) دراسة مقارنة بين وجهة النظر الإسلامية ووجهة النظر الأوربية**، عمّان- المملكة الأردنية الهاشمية، الأهلية للنشر والتوزيع.

- لويس، برنارد، ١٩٨٤م، **الإسلام في التاريخ**، ترجمة عن الإنجليزية: شلوموجونين زمورا، د. ط، تل أبيت.
- مدكور، د. عبد الحميد، ١٩٨٨م، **دراسات في الفكر الإسلامي**.
- المنجد، صلاح الدين، ١٩٨٧م، **قواعد تحقيق المخطوطات**، ط٧، بيروت- لبنان،دار الكتاب الجديد.

ثانيًا: الرسائل والأطاريح الجامعية

- حمود، مشتاق، ٢٠٠١م، **تطور الاستشراق البريطاني في كتابة السيرة النبوية الشريفة**، جامعة بغداد، العراق.
- القيسي، موسى خابط عبود، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م،**القراءة الاستشراقية للنصّ القرآني دراسة معرفية**، جامعة بابل، العراق.

ثالثًا: الدوريات

- امعيشو، د. فريد، ٢٠١٦م، **الاستشراق الإسباني والتراث العربي الإسلامي بالأندلس (ميغيل أسين بلاثيوس نموذجًا)، دراسات استشراقية**، ع٧م.
- **من أطوار الاستشراق** ومراميه، مجلة (دعوة الحق)، وزارة الأوقاف بالمغرب، ع٧، س١٣٠،يونيو ١٩٧٠م.

رابعًا: شبكة المعلومات

- طرابلسي، فواز، إدوارد سعيد في تطوره الفكري من شرق غرب إلى رحاب الإنسانية، فواز ٧١٣١/http://w99ww.al-akhbar.com/node.